

سر العبادة

الدكتور محمود رمضان البوطي

سر العبادة في معناها لا في مبنائها، ومبناها هو ما يتراءى للعيان من حركات ومظهر، ويتحقق بتوافر أركان العبادة وشروطها. وأما معناها فهو ما تنطوي عليه العبادة من فحوى وجوهر؛ ويمثله مشاعر العبودية لله عز وجل.

فلا عبرة بما يث وينشر من صور للراكعين الساجدين، ولا بما يتبدى منك أو من غيرك للناظرين. لأن المعول عليه الجوهر لا المظهر، ألم يقل النبي صلى الله عليه وسلم: (إن الله لا ينظر إلى صوكم ولا إلى أجسادكم) وفي رواية: (ولا إلى أعمالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم).

ومشاعر العبودية هي التي تجعل القلب منكسراً لله، منذلاً على أعتابه، وهي التي تنمر في القلب محبة الله وتعظيمه، وهي التي تعصم القلب عن كثير من الشواغل والغفلات، وهي التي تجعل العابد يتقلب بين جناحي الخوف والرجاء؛ لسان حاله يقول: إن قبلتني وعبادتي فبفضلك، وإن طردتني فبعذلك.

فإن كان مكثراً من العبادات، لكنه يمارس عبادته وقلبه خالٍ عن معنى الانكسار لله، فإن طاعاته تبقى قاصرة لا توصله إلى الله، بل ستكون نهباً للتشتت والشروء.

لسانه يلهج بالدعاء، لكن لسانه في واد وقلبه وعقله في واد آخر. يصلي لكن الكسل قد أخذ من مجامع نفسه، يزكي لكنه لا يتورع عن دفع رديء المال وما كسد من بضاعته، وهكذا شأنه في سائر عباداته. ثم بعد ذلك تراه يمتن على الله عز وجل بطاعته - مستكثراً أو متفاخراً .. يشعر بركيعته القليلة، بصيامه، بزكاته، بحجه .. أنه قد غدا من الصالحين الواصلين، قد ضمن الجنة بل تربع في أعاليها ..

هذا حال من يمارس عبادته مفصولة عن مشاعر عبوديته.

أما من استشعر معنى العبودية لله عز وجل فإنه يرى نفسه مقصراً مهما قدم ومهما بذل .. ألم يكن النبي صلى الله عليه وسلم يقوم الليل باكياً حتى تتورم قدماه، فإن قيل له في ذلك قال: أفلا أكون عبداً شكوراً؛ يجد نفسه مقصراً لم يؤد شيئاً من حقوق الربوبية لله؛ وعبداً قد أخذت العبودية بمجامع قلبه أنى له أن يتفاخر بعبادته، أو أن يشرّد عن ربه، أو أن يؤذيها رفعاً للعتب كما نقول. إن مشاعر العبودية عند سيد العابدين وإمام المتقين صلى الله عليه وسلم هي التي جعلته لا يعتد بشي من عبادته، وأكد هذا المعنى بقوله: (لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله. قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله منه بفضل ورحمة).

من هنا ندرك قانوناً حتمياً لا شذوذ فيه: كلما غاضت مشاعر العبودية من قلوب العابدين كلما غابت معها آثار العبادة من سلوكهم. وإذا نظرنا في المسلمين، نجد أن أكثر المسلمين في واد وإسلامهم في واد آخر؛ نعمن النظر فلا نجد للعبادة أثراً تبادى على سلوكهم، قد بات الإسلام غريباً بين أهله ورحمه، أسماء إسلامية.. مظاهر إسلامية.. مساجد عامرة.. مصاحف فاخرة، لكن ذلك كله مظاهر وأطر تكسى بها عبادتنا، أما الجوهر فمفقود.

والمفروض أن تجد المصلي عبداً لله في بيته، عبداً لله في سوقه ومتجره، عبداً في معمله، عبداً في وظيفته، عبداً في تعامله مع إخوانه، عبداً في تربية أولاده وبناته. لأن العبودية - لو توافرت - حال يصطبغ به المسلم، وينعكس على علاقته مع أهله وإخوانه ومجتمعه خلقاً وورعاً وسمواً. فلنتلمس مكان العبودية من قلوبنا ومكائنها من نفوسنا، ولنجعل منها رقيباً على سلوكنا، كاجأ لنا عن تجاوزاتنا، عسى أن يكرمنا الله عز وجل فيجعلها لنا شفيحاً بين يدي تقصيرنا.